ISSN: 1112-7872 مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
E-ISSN: 2600-6162 مجلد: 16 عدد: 01 مارس 2020
ص.ص 167- 184 التعايش والتسامح في المدرسة الاباضية...

التعايش والتسامح في المدرسة الإباضية

عمر زعابة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة معسكر
o.zaaba@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 27/ 01/ 2019؛ تاريخ القبول:11/ 02/ 2019

Coexistence and tolerance in Ibadi school

Abstract:

Without doubt the Almighty God, the Wise Creator, has made people different in their tongues, colors, people, customs, and perceptions. He also made them habitable in his land. His wisdom required them to come to live peacefully on this earth. “O people, we have created you as male and female, and made you peoples and tribes, so that you may know each other, your preferred to Allah is the most pious, Allah is an expert knowledgeable”. Thus, God targeted coexistence and tolerance through creating us different in colors and tongues.

This was wisdom in creating all human beings of different classes. By result, it should be first the case of the Muslim nation in the diversity of schools of jurisprudence. This latter should bear this in mind as a top priority, in addition toreferring to sources of valid evidence and fairly analyzing the history of Islamic civilization. As an example we found that tolerance and coexistence has a good background in the religious, political, social, intellectual and economic life of the ibadi school.

Keywords: The doctrines; Ibadi school; Peoples; Coexistence Tolerance.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

الملخص:

من المعلوم والمسلّم به أنّ المولى عز وجل وهو الخالق الحكيم قد جعل الناس مختلفين في ألسنتهم وألوانهم وأقوامهم وأعرافهم ومداركهم وتصوراتهم، وأسكنهم فسيح أرضه، واقتضت حكمته أن يتعارفوا بينهم ليتعايشوا بسلام على هذه الأرض، ولذا جاء في الكتاب العزيز قوله عز من قائل: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات:13)، لذا فإن الله عز وجل لم يرد أن يكون اختلافهم في ألوانهم وألسنتهم مدعاة للنزاع والشقاق بل جعله الله دافعا إلى التعايش والتسامح.

إذا كانت هذه الحكمة من خلق البشر جميعا، على اختلاف أصنافهم فمن الأولى أن يكون ذلك شأن الأمة المسلمة بتنوع مدارسها الفقهية التي ينبغي عليها أن تضع ذلك في اعتبارها وفي مقدمة أولوياتها وبالرجوع إلى المصادر لاستنطاق الأدلة الصحيحة وتحليل منصف لتاريخ الحضارة الإسلامية، فإننا نجد للتسامح والتعايش خلفية زكية في الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية للمدرسة الإباضية.

الكلمات المفتاحية: المذاهب؛ المدرسة الإباضية؛ الشعوب؛ التعايش؛ التسامح.

مقدمة:

التسامح والتعايش هذا الواجب الذي هجره كثير من الناس ولم يولوا له بالغ الأهمية، ولم يجسّدوه إلا بقدر يسير، وربما قصّر فيه العامة بسبب تقصير الخاصّة في مختلف البيئات والثقافات عبر الزمان والمكان، ومن خلال الرجوع إلى المصادر لاستنطاق الأدلة الصحيحة وتحليل منصف لتاريخ الحضارة الإسلامية وشعوبها، فإننا نجد للتسامح والتعايش خلفية زكية في الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية، فكيف هي عند المدرسة الإباضية؟ وما هي تجلياتها؟

عمر زعابة
o.zaaba@univ-mascara.dz

1 ـ التسامح:

الجرجاني في تعريفاته حول التسامح يقول: "المسامحة ترك ما يجب تنزّها" (صليبا، ج، 1978: 271)، ولعل هذا يفيد التنازل وتغليب المصلحة الجماعية على الفردية، وينقل أيضا صليبا جميل عن فولتير وغيره من فلاسفة القرن 18 قولهم: "إن التسامح هو ما يتّصف به الإنسان من ظرف وأنس وأدب تمكّنه من معايشة الناس رغم اختلاف آرائهم عن آرائه "(صليبا، ج، 1978: 271)، وذهب بعيدا في تعريف آخر عن التسامح واعتبره واجبا أخلاقيا قائلا: "فليس تسامحنا في ترك الناس وما عليه من عاداتهم واعتقاداتهم وآرائهم منّة نجود بها عليهم، وإنما واجب أخلاقي ناشئ عن احترام الشخصية الإنسانية" (صليبا، ج، 1978: 272).

أما الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان، فإنّه يشترط أن يكون التسامح: "من منطلق القوة لا من منطلق الضعف بحيث تكون الأمة في مركز قوة" (السعدي، ف، 2010: 229)

2 ـ المدرسة الإباضية:

المذهب الإباضي مدرسة من المدارس الإسلامية، نشأت في مدينة البصرة على يد التابعي الجليل أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني، ولكنه كان ينسب لدى السلطات الرسمية الأموية إلى التابعي الجليل عبد الله بن إباض المري التميمي البصري، لأنّه كان يمثّل أمام الخلفاء الأمويين لتبليغ صوت جابر بن زيد، وأتباعه، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان الإباضية يسمّون أنفسهم "أهل الحقّ والاستقامة"،

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

وسمّاهم الخوارج "القعدة" لأنّهم قعدوا عن قتال المسلمين واستحلال أموالهم في مدينة البصرة مع نافع الأزرق، وتبرؤوا من الخوارج.

كان المذهب ينتشر عن طريق التعليم والدعوة إليه في المدارس والمساجد والحلقات والمجالس التي تعقد في البصرة مستخفية عن أعين الاضطهاد السياسي الذي كان يتعرض له أتباع المذهب في كل زمان ومكان، كما كان المشايخ يعقدون اتصالاتهم أثناء مواسم الحج والعمرة(ناصر، م، 2000: 265 ـ 310).

إذا تعذّر ذلك، فإن المراسلات العلمية والأخوية والسياسية كانت تجوب أقطار الإباضية شرقا وغربا وتبادل الكتب والمساعدات المادية والأدبية، لم تنقطع بين الخاصّة والعامّة، وأحيانا كانت الرحلات التجارية وتبادل الزيارات تقوم مقام المجالس العلمية، وبفضل الرحلات وصل الإسلام إلى الصين والهند (ناصر، م، 2000: 265 ـ310)، ومن مركز الإشعاع الفكري في البصرة وصل المذهب إلى عمان واليمن وليبيا ومصر وخراسان والجزائر والسودان ومالي وغانا، وسر بقائه إلى اليوم مع سائر المذاهب الإسلامية الأخرى هو بسبب مرونة فروعه، والتزامه بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون عنف ولا تطرف، كما التزم أتباعه بالعقيدة الصحيحة التي تجمع بين القول والعمل.

دخل الأئمة معترك السياسة في دول أقاموها في الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وأواسطها ولكن لم تعمّر طويلا، نذكر منها: الدولة الرستمية في الجزائر ودولة طرابلس بليبيا ودولة اليمن وعدّة إمامات في عمان... وهذا الوضع يمثل مسلك الظهور السياسي، وأما مسلك الدفاع عن النفس فإنّه يمثل إمامة مؤقتة تنتهي فيه مهام الإمام بانتهاء الحرب..

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

وإذا استشرى الفساد في الأواسط الاجتماعية فإن مسلك الشراء هو الذي يعلن رفض الظلم ويتولى فريضة الأمر والنهي إلى حين.

عندما يكون عدد الإباضية قليلا وعدّتهم ضعيفة، فإنّهم يلتزمون مسلك الكتمان، وذلك عن طريق ممارسة رسالة التربية والتعليم وجمع الكلمة والدعوة إلى الله بعيدا عن السياسة والسياسيين.

لعلّ التراث الفكري الذي خلّفه علماء محققون وفقهاء مجتهدون من هذا المذهب هو المظهر الصادق لثراء هذه المدرسة وقوّتها العلمية في جميع العصور، فقد ألّفوا في مختلف الفنون الدينية والعلمية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية، منذ القرن الأوّل الهجري موسوعات تشهد لعلمائها بالتفوق العلمي، نذكر على سبيل المثال: ديوان جابر بن زيد الذي كان يتنافس على اقتناءه الملوك والأمراء...ونذكر أيضا كتاب قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة للشيخ جميل بن خميس السعدي وهو عبارة عن موسوعة فقهية أدبية تشمل 92 جزءا، وقد طبع مؤخرا في سلطة عمان، وجمع قبله الشيخ محمد بن إبراهيم الكندي، موسوعة "بيان الشرع الجامع للأصل والفرع" في 72 جزءا وقد طبع سنة 1993م، إنّ من الذين سجل اسمه في التفسير أيضا نجد الشيخ هود بن محكم الهواري الأوراسي الذي ألّفه تفسير كتاب الله العزيز في ق3ه (بلحاج، ش، 1990)، وفي أصول الفقه نجد من الأسماء اللامعة الشيخ أبا يعقوب يوسف ابن إبراهيم الوارجلاني، قد ألّف كتاب "العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف"(وزارة التراث، 1984)، كما برع في مختلف العالم المجتهد قطب الأئمة الشيخ امحمّد ابن يوسف اطفيش، ومن أروع ما يشهد له كتابه: "تيسير التفسير(إبراهيم، ط:

عمر زعابة
o.zaaba@univ-mascara.dz

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

2011)، وكتابه النيل وشفاء العليل"، الذي يعد مرجع في الفقه والفتوى في مختلف الحواظر العلمية بالعالم(إبراهيم، ا: 1985).

نجد في السياسة والصحافة أيضا، أبا إسحاق إبراهيم اطفيش في مجلة "المنهاج"(مجلة، م: 1950)، والشيخ أبا اليقظان إبراهيم ابن عيسى أبو الصحافة الجزائرية، الذي جاهد بجرائده: " وادي مزاب، مزاب، الأمة، البستان، الفرقان، النبراس، النور، المغرب"(أبو اليقظان، ب: 2003) أبلى بها بلاء حسنا، ومن الأدباء شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء، ولا يزال الركب متواصلا مع علماء معاصرين جادين مثل الشيخ إبراهيم ابن عمر بيوض(جمعية التراث: 36)، والشيخ عبد الرحمان البكري(جمعية التراث: 520)، والمحقق الشيخ إبراهيم طلاي، والدكتور محمد ناصر، وغيرهم ممّن يعجّ بهم معجم أعلام الإباضية عجّا.

3 ـ التسامح وأهميته:

3 ـ 1 ـ حكم التسامح في الإسلام:

المدرسة الإباضية تستمد الدليل على نشر ثقافة التسامح والتعايش من الكتاب والسنّة وعمل الصحابة والصالحين في حياة الإسلام، فمن القرآن الكريم قوله بعد إبراز الاختلافات وطريقة معالجتها في سورة الحجرات: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات:13)، فبين أنّ الاختلاف العرقي والألوان بين البشر سنة كونية لا تفيد الاختلاف في الفكر، ولا تكون سببا للتناطح بل تكون سببا للتعارف والتسامح والتعايش والتعاون، في نفس المعنى عندما بين الله أنّ الجدال مع أهل الكتاب يكون بالتي هي أحسن فقال: "وَلَا

عمر زعابة
o.zaaba@univ-mascara.dz

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

تُجَادِلُواْ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُواْ ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَاهُنَا وَإِلَاهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (العنكبوت: 46).

أما في السنة الشريفة، فنجد أحاديث ووقائع كثيرة فعلها الرسول ﷺ ودعا إليها من أجل تعزيز أسلوب التسامح في المجتمع الإسلامي، وأروع وجه من أوجه التسامح في الإسلام هو صحيفة التعايش بين المسلمين واليهود والمشركين والمهاجرين والأنصار في المدينة المنوّرة (ابن هشام: 167)، والتي وافق عليها جميع أصناف المجتمع المدني، وأمضاها جميع الأطراف للتعايش السلمي فيما بينهم، وهي تتضمن 47 بندا، وانعكس ذلك بالإيجاب على الجميع حتى غدت المدينة المنورة أول عاصمة للدولة الإسلامية.

4- أهمية التسامح:

تبرز أهمية التسامح في أشياء كثيرة توفر للفرد والمجتمع حياة سعيدة أذكر منها:

- فتح باب الحوار ونبذ العنف والتطرف بين أفراد المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات وقبول الآخر.
- محاربة التعصّب السلبي للأفكار والترفع عن سفاسف الأمور.
- الحصول على الاستقرار النفسي للأفراد والتطور الحضاري للمجتمع المسلم..
- التعاون على البرّ والتقوى ودفع المضرة قبل جلب المصلحة في مختلف مجالات الحياة الإنسانية.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

- العمل على المحافظة على قوة المجتمع ووحدته عن طريق المصالحة ونبذ الافتراق.

- حب الخير للجميع وتبادل الاحترام بين أفراده من مختلف الثقافات والملل والمذاهب.

- التفكير الإيجابي في رعاية حقوق الآخرين ورفع الحرج عنهم.

5 ـ التسامح والتعايش عند المدرسة الإباضية:

لقد مارس أتباع المذهب الإباضي التسامح والتعايش في مختلف مجالات الحياة، وجسّدوه واقعا عمليا استفاد منه العام والخاص، نذكر منها نماذج للعبرة والأذكار:

5 ـ 1 ـ المجال الديني:

لم يكن في المذهب الإباضي تشدد في الأصول والفروع ولا تطرف، بل كان هناك اعتدال وتسامح، والدليل على ذلك هو تقبل كثير من الشعوب الدعوة إلى الإسلام على يد علماء المذهب الإباضي وتجّاره من غير تقاطع ولا صدام، فقد وصل الإسلام إلى مالي وغانا على يد الشيخ علي بن يخلف الوارجلاني سنة 575هـ في صحراء إفريقيا (الدرجيني، أ، 2008: 340)، وكان سبب ذلك أخلاقه العالية في المعاملة مع غيره، ووصل الإسلام إلى الهند على يد التجار العمانيين الذين تصاهروا وانصهروا في المجتمع الهندي بخلق التسامح والتعاون (ناصر، م، 2000: 517)، أما البحّار التّاجر أبو عبيدة عبد الله بن القاسم فقد أوصل الإسلام إلى الصين حوالي سنة 133هـ، وسلك في ذلك منهج التسامح والرفق والرحمة حتى لقبه الإمبراطور الصيني"سون سين زون" بـ "جنرال الأخلاق الطيبة" لأنه كان رئيس الجالية العربية في الصين (أحمد،

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

د، 2008: 292)، ويقول رجب محمد عبد الحليم:" ولذلك كان من مبادئ الإباضية بعد جابر الصلاة خلف أهل القبلة كلهم، وخلف الجبابرة في الأمصار التي تجب فيها صلاة الجمعة اقتداء بجابر، ولذلك كانوا يجيزون الإقامة في أي بلد غلب عليه الجبابرة، ويجيزون الغزو معهم أيضا، كما كانوا يأخذون بأحكامهم ولا يرون في ذلك بأسا طالما أن أحكامهم كانت موافقة للحق والعدل".(رجب، م، 1999: 81).

5 ـ 2 ـ المجال السياسي:

لقد ضربت الدولة الرستمية أروع الأمثلة في المجال السياسي بفضل منهج التسامح الذي انتهجه أئمة الدولة الرستمية، فقد جمعت العاصمة تيهرت مختلف أتباع المذاهب الإسلامية الذين لجئوا إليها ووجدوا الأمن والأمان، مثل المالكية والشيعة والنكار والمعتزلة، قال ابن الصغير: "ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتني بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله... حتى لا ترى دارا إلا قيل: هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت السبل إلى بلدان السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة" (ابن الصغير،36)، وعندما تحدّث عن حكم الإمام أفلح قال: "وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة... " (ابن الصغير،61)، وعندما تحدث عن أبي اليقظان محمد بن أفلح الإمام الخامس للدولة الرستمية ـ وقد لحق بعض أيامه ـ قال:

"وكان المغرب كله مفتونا بهذا الرجل حتى وإن كان من الإباضية بسجلماسة يبعثون إليه بزكاتهم يصرفها حيث شاء" (ابن الصغير،97)، وبفضل نهج التسامح الذي تمتاز به الدولة الرستمية فإن الأئمة اتخذوا لهم مجلسا للشورى يرجعون إليه في المهمات والملمات لكي لا يستبدوا برأيهم.

من أساليب التسامح السياسي في دولة تيهرت نجد الإمام عبد الرحمان بن رستم الفارسي يزوّج بنته أروى لمدرار بن اليسع وهو نجل الإمام الرابع لدولة بني مدرار بسجلماسة بالمغرب (الباروني، 2014: 169)، حتى يكرس سياسة حسن الجوار ويؤمّن حدوده.

عندما عهدت الدولة الأموية الخلافة إلى الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله سنة 99ه أرسل أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة إمام الإباضية في البصرة ـ رحمه الله ـ وفدا إليه يتكون من: أبي الحر علي بن الحصين العنبري، وسالم بن ذكوان الهلالي وأبي مودود حاجب الطائي، وجعفر بن السماك العبدي...والحتات بن كاتب، فتفاوضوا على ثلاث نقاط هي:

- أن لا يحاربوه مادام عادلا.
- أن يحي كل يوم سنّة ويميت كل يوم بدعة.
- أن يبطل عادة لعن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على المنابر. (أحمد، د، 2008: 39).

هناك شهادة لـ: رجب محمد عبد الحليم قائلا: "وهكذا تصدى الإباضية لكل غال ومتطرف حتى ولو كان يمت لهم بصة القربى والعرف والنسب والأصل، وهكذا اجتمعوا على مقاومة الخوارج بشتى

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
مجلد: 16 عدد: 01 مارس 2020
التعايش والتسامح في المدرسة الاباضية...
ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

ألوانهم وأصنافهم في بلدان المشرق والمغرب، وطبّقوا الشرع في معاملاتهم مع إخوانهم من المسلمين وقت الحرب ووقت السلم، وتصدوا للأفكار المغالية وقاوموها أشدّ المقاومة، وتسامحوا مع أهل الفرق الأخرى، فوجد أصحابها في بلدانهم وممالكهم، وعاش الجميع إخوة متحابين، وكانت هذه المواقف وهذه السياسة التي اتبعها الإباضية في مختلف عصورهم، وكان هذا الاعتدال وتلك السماحة التي تحدّثنا عنها بتفصيل من الأسباب القوية التي أدّت إلى انتشار مذهبهم في كل مكان وصله دعاة هذا المذهب سواء في مصر أم في بلاد المغرب أم غيرها من البلدان".(رجب، م، 1999: 81).

5 ـ 3 ـ المجال الاجتماعي:

بفضل التسامح الذي انتهجه أئمة الدولة الرستمية استطاعت تيهرت أن تجمع في أطرافها بين العجم والعرب والبربر والأندلسيين من غير تميز ولا تحيز، بل الكل يجاور الأخر ولا يختفي عنه، والكل لهم نفس الحقوق والواجبات، والدليل على ّلك وصول بعض الأندلسيين إلى سدة الحكم رغم أنهم ليسوا من الأسرة الحاكمة مثل مسعود الأندلسي الذي عيّنه الغمام عبد الرحمان في لجنة الترشيح للخلافة مع ستة آخرين(الوارجلاني، ي، 1979: 54)، كما جمعت تيهرت في حكمها بين قبائل شتى وعشائر مختلفة نذكر منها: هوارة، لواتة، نفوسة، مزاتة، وزناتة ومطماطة، وقد شملت مظلة تيهرت حتى أهل الذمة من اليهود والنصارى الذين كان الإمام يقبض منهم الجزية (ابن الصغير،61).

أمّا عن دور المسجد في تربية المجتمع في وادي مزاب، فيقول الشيخ إبراهيم القرادي: "المساجد في وادي مزاب مصدر خير وهداية ونور

لحياة اجتماعية تقوم على أسس إسلامية سليمة، تعطي في مجموعها صورة حية لملامح مجتمع مسلم في عصرنا الحديث" (ناصر، م ، 1990: 48)، في التسامح العرقي الذي انتهجته عشائر وادي مزاب بالجزائر يقول الشيخ إبراهيم القرادي: "بل رأينا كثيرا من العشائر تقبل في صفوفها عائلات من غير الإباضية، ولا تلزمهم باعتناق المذهب في حال من الأحوال، وإن كانت ترحب بهم إذا جاءوا بطواعية" (ناصر، م، 1990 : 57).

5 ـ 4 ـ المجال الاقتصادي:

إنّ السمة التي برز بها الإباضية في المجال الاقتصادي هي الجدّ والتفاني في رعاية الكسب الحلال والتضحية بالنفس والنفيس من أجل عمارة الوطن، والتسامح والتعايش مع الزبائن في أي منطقة من مناطق الجزائر مع مراعاة النصح والإخلاص والصدق في المعاملة.

يقول الشيخ محمد علي دبوز عن التجارة المزابية أثناء الاستعمار: "إنّ المشايخ في وادي مزاب يدعون المزابيين ويرشدونهم في دروسهم التي يلقونها في المناسبات المختلفة إلى الاهتمام بالتجارة والنهوض بها ومزاحمة اليهود في تجارة الجملة التي استأثروا بها في الجزائر...وكانوا يدعون إلى اقتباس الأساليب العصرية الحديثة الراقية في التجارة، ويركّزون على حسن المعاملة التي هي الأساس في نجاح التاجر أو عدم نجاحه، وعلى الأمانة والنشاط، والتضحية في سبيل العمل الجاد وإتقانه" (دبوز، م، 1965: 56).

أمّا عن الشراكة الاقتصادية بين الإباضية والمالكية، فهذا المنطلق نستطيع أن ندرك مدى التوافق بين المذاهب المتعايشة في هذه الأقطار

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

المتجاورة في المغرب العربي، وخاصة الجزائر الحبيبة منذ ما يزيد على ألف سنة ممّا يعدّون، وكم من شهدت هذه الحقبة التاريخية الطويلة من تآزر وتعاون وتآخي بين الإباضيين والمالكيين خاصة جنوب الجزائر ـ وادي مزاب ـ إذ تجاوروا وما زالوا متجاورين في البيوت، وتشاركوا في شركات للزرع والحرث والمساقاة والمغارسة وتربية المواشي والأنعام في البوادي والحضر، وتاجروا في مختلف ميادين التشغيل الفلاحي والصناعي والتجاري وورشات الأشغال ومقاولات البناء وما أكثرها حتى اليوم، إنّ ذلك ما أتبثه التاريخ، فليس معنى ذلك أنّنا لا نجد أي خلاف يذكر بين إباضي ومالكي في بعض التصورات الإيديولوجية العقائدية أو بعض التصرفات العملية التطبيقية، فإن ذلك ما لا يكاد يسلم منه حتى اتباع المذهب الواحد كالإباضية فيما بينهم، والأحناف فيما بينهم، وحتى بين أصحاب الرسول ﷺ فيم بينهم.

5-5- المجال الفكري:

عند دراستنا لكتب الفقه الإباضي، نجد فيها من نهج التسامح الكثير، وعلى رأسها الفقه المقارن والاستفادة من جميع المدارس الفقهية الأخرى، فلا حرج أن يذكر الإمام الشافعي إلى جانب الإمام جابر بن زيد، أو الإمام مالك إلى جانب الإمام الربيع بن حبيب بكل موضوعية.

نجد ذلك في كتاب قواعد الإسلام(عبد الرحمان، ب، 1976) للشيخ إسماعيل موسى الجيطالي رحمه الله وكتاب الذهب الخالص للشيخ أمحمّد بن يوسف أطفيّش (إبراهيم، ط، 1943)، وفي كتابه الموسوعي القيّم: "شرح النيل وشفاء العليل".

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167 -184

لا حرج أن يعتمد الشيخ أبو ستّة محمّد بن عمرو في حاشيته (إبراهيم، ب، 1995) المطوّلة على ترتيب مسند الإمام الربيع بن حبيب على الإمام ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري وغيره.

نجد كتبا أخرى للفقه الشافعي يضع لها عالم إباضي حاشية فقهية مثل كتاب: زيادات أبي سعيد الكدمي على كتاب الإشراف على مذاهب العلماء(علي، ب، 2011) تأليف الإمام أبي بكر محمد بن ابراهيم بن المنذر النيسابوري.

لا حرج أن يرجّح فقيه إباضي ما رجّحه علماء غير الإباضية، ولا يرجح ما رجّحه علماء الإباضية مثله، ومن ذلك قول قطب أطفيش "ولي ترجيح لأهل أندلس على غيرهم من قومنا لمزيد تحقيقهم مع ما هم فيه من قتال النصارى"(اطفيش، ب، 1976: 302).

إنّ المناظرات الفكرية في علم الكلام التي كانت تنظم في مجالس الدولة الرستمية بين الإباضية والمعتزلة كانت تعتمد أسلوب مقارعة الحجة بالحجة، بعيدا عن العنف والتطرف والغلو، ومن ذلك مهدي النفوسي الذي أقنع سبعين عالما بحقيقة المذهب فاعترفوا به(يحيى، ب، 1979: 69).

من هؤلاء نذكر الشيخ أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي(مؤسس حلقة العزابة) الذي كان يأتي إلى منطقة مزاب بالصحراء الجزائرية، ويناظر المعتزلة حتى تحوّلوا إلى المذهب الإباضي في بداية القرن 5هـ(يحيى، ب، 1979: 175).

لا نجد غضاضة أو ضعفا أن نتكلم بالأمازيغية ونؤلف باللغة العربية وندرس باللغة العربية بعد أن كان التأليف في شمال إفريقيا باللغة

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

الأمازيغية، يقول عمرو بن جميع صاحب العقيدة: " فإنني وجدت هذه النكتة منسوخة بالبربرية في توحيد خالق البرية، فطلبني من لا أردّ قوله ولا أجهل فضله أن أنقلها من لسان البربرية إلى لسان العربية، ليبين لفضها، ويسهل على القارئ حفظها... "(عمرو، ج، 2000: 1-2)

لا يجد الإباضية حرجا في أن يدرس الإباضي في معاهد وجامعات المالكية وغيرهم، مثل جامع الزيتونة والجامع الأزهر بالقاهرة أو جامع قرطبة بالأندلس، أو جامع القرويين بالمغرب أو في إحدى الزوايا العلمية بالجزائر، فهذا الإمام أبو يعقوب يوسف الوارجلاني الذي تخرّج من جامع قرطبة بالأندلس(عمرو، ج، 2000: 1-2)، والمؤرخ الكبير الشيخ محمد على دبوز قد تخرّج من جامع الأزهر بالقاهرة،(جمعية التراث، 1999: 812) والشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الذي درس عند الشيخ عبد القادر المجاوي في الجزائر العاصمة(جمعية التراث، 1999: 840).

إنّ علماء الإباضية قد انتهجوا نهج التسامح وربوا عليه أبناءهم، فلا يجدون أيّ حرج أن يدرّسوا أبناء المالكية في معاهد الإباضية ومدارسها الحرة، في الجزائر أو تونس أو ليبيا أو مالي أو بوركينافاسو، منذ القديم إلى وقتنا هذا، نذكر من هؤلاء الشاعر: محمد الأخضر السائحي الذي درس في مدرسة الحياة بالقرارة سنة 1993م(رابح، خ، 2003: 49).

6 ـ آثار فكر التسامح في المدرسة الإباضية:

من خلال ما تطرقنا في مجالات التسامح عند المدرسة الإباضية، تتجلى لنا بعض الآثار الإيجابية في الفرد والمجتمع، قسمناها إلى نوعين: الآثار الأدبية والآثار المادية.

عمر زعابة
o.zaaba@univ-mascara.dz

6 ـ 1 ـ الآثار الأدبية:

ـ تربية الفرد المسلم على حب الخير لجميع الناس.

ـ المسارعة إلى الصلح بين المسلمين عند خصامهم.

ـ تنمية روح خدمة المصلحة العامة قبل خدمة المصلحة الشخصية.

ـ رفض جميع أنواع العنف والظلم والأنانية والتفرق داخل المجتمع وخارجه.

ـ الاستقرار الاجتماعي والتطور الإيجابي والانقياد المثمر للمؤسسات الخاصة والعامة المؤطرة لحياة الأفراد والجماعات داخل مزاب وخارجه.

ـ التعاون مع الغير واحترامه لتحقيق حياة أفضل في جميع مجالات الترقية الاجتماعية لأفراد هذا الوطن.

6 ـ 2 ـ الآثار المادية:

إنّ فكر التسامح لدى المدرسة الإباضية أسهم بصفة دائمة وفعّالة في التطور المادي لكثير من الأفراد، أذكر على سبيل المثال ما يأتي:

ـ إضافة مؤسسات اقتصادية نشيطة في ربوع هذا الوطن العزيز وعدم الخضوع إلى البطالة والاستهلاك السلبي.

ـ التنافس في رعاية أوقاف عملية لصالح التربية الدينية للأجيال وغرس فكر التسامح والتعايش والوسطية لدى الجيل الصاعد.

ـ التكفّل المادي لفئة المحرومين عن طريق الجمعيات الخيرية والعشائر ومحاربة ظاهرة التسول في المجتمع المسلم.

ـ المحافظة على أموال الأرامل واليتامى العمال عن طريق الاستثمار والإيثار في كل زمان ومكان.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 167- 184

ـ التوسع العمراني الإيجابي في ضواحي المدن والأرياف وتحقيق التطور الاجتماعي الأكمل والأصلح والأشمل في جميع مناحي الحياة.

خاتمة: تعتبر المدرسة الإباضية التسامح والتعايش والتعاون على البر والتقوى واجبا وفرضا عقائديا وأخلاقيا لما له من تداعيات ايجابية على حياة الأفراد والجماعات، لأنه فكر حضاري به تطوّرت وازدهرت الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفكرية، لأنه بتطور الجزء يتطور الكل.

ولأن كل واحد منّا مسؤول في دائرة اختصاصه على تحقيق السلم الاجتماعي والإنساني وإحيائه في جميع القلوب والأمصار والدخول فيه، وهذا مصداقا لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" (البقرة: 208). صدق الله العظيم.

المراجع:

– أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني، (1979)، سير الأئمة وأخبارهم، تح، إسماعيل العربي، ط1، الجزائر، المكتبة الوطنية.

– أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، (2003)، تاريخ صحف أبي اليقظان، ط1، دار هومة.

– ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

– الباروني سليمان، (2014)، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ط 2، سلطنة عمان، مكتبة الضامري.

– اطفيش إبراهيم امحمد بن يوسف، (1985)، شرح النيل وشفاء العليل، ط1، السعودية، جدّة، دار الفتح.

- جميل صليبا، (1978)، المعجم الفلسفي، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

- جمعية التراث، (1999)، معجم أعلام الإباضية، ط1، غرداية، المطبعة العربية.

- دبوز محمد علي، (1965)، نهضة الجزائر الحديثة وتورثها المباركة، ج1، ط1، القاهرة، المطبعة التعاونية.

- فهم بن علي السعدي، (2010)، لقاءات الشيخ أحمد الخليلي في الفكر والدعوة، ط1، سلطنة عمان، مكتبة الأنفال.

- الدرجيني أحمد بن سعيد، (2008)، طبقات المشايخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، ط2، الجزائر.

- ناصر محمد صالح، (1990)، الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي، ط1، غرداية، جمعية النهضة، المطبعة العربية.

- ناصر محمد صالح، (2000)، منهج الدعوة عند الإباضية، الجزائر، جمعية التراث.

- عمروا بن جميع، (2000)، عقيدة العزابة، تح، عمر بزين، ط2، غرداية، المطبعة العربية.

- رجب محمد عبد الحليم، (1999)، الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة، ط1، عمان، مطابع النهضة.

- خدوسي رابح، (2003)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ط1، الجزائر، دار الحضارة.

- كتاب مطبوع، (1976)، تح وتع الشيخ عبد الرحمان البكري.

- كتاب مطبوع، (1943)، تح وتع الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش.

- كتاب مطبوع، (1995)، تح الشيخ إبراهيم طلاي.

- كتاب مطبوع، (2011)، تح الأستاذ إبراهيم بن علي بولرواح.

للإحالة على هذا المقال:

- عمر زعابه، «التعايش والتسامح عند المدرسة الإباضية» **المواقف**، المجلد: 16 ، العدد: 01، مارس، 2020، ص. ص 167– 184.